

محمد عطية الإبراشي

صَلاحُ الدِّينِ وَقَلْبُ الأَسَدِ

قَصَصُ إِسْلامِيَّةٍ لِلأَطْفالِ

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الجيزة

ملزمة الطبع والنشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بُنَى الْعَزِيز :

سَأَذْكُرُ لَكَ الْآنَ قِصَّةَ صَلَاحِ الدِّينِ مَعَ قَلْبِ الْأَسَدِ ،
وَهِيَ قِصَّةٌ جَمِيلَةٌ جِدًّا ، تَدُلُّ عَلَى بَطُولَةِ صَلَاحِ الدِّينِ ،
وَشَجَاعَتِهِ وَنُبُلِهِ .

مَاذَا حَدَثَ بَعْدَ أَنْ دَخَلَ صَلَاحُ الدِّينِ بَيْتَ

الْمَقْدِسِ ؟

وَصَلَّتِ الْأَخْبَارُ إِلَى أَوْرُبَّةَ وَالْأُورُبِّيْنَ أَنَّ صَلَاحَ الدِّينِ
دَخَلَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ مُتَّصِرًا ، وَاسْتَوْلَى عَلَيْهِ ، فَتَأَثَّرُوا
وَهَاجُوا ، وَاجْتَمَعَ الْمُلُوكُ وَالْأَمْرَاءُ مِنَ الْإِفْرَنْجِ ، وَاتَّفَقُوا
مَعَ رِجَالِ الدِّينِ مِنْهُمْ عَلَى جَمْعِ جُيُوشٍ جَدِيدَةٍ مِنَ
الصُّلَيْبِيِّينَ ، لِتَخْلِيصِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ مِنْ يَدَيْ صَلَاحِ
الدِّينِ .

وَصَلَّتِ الْجُيُوشُ الصُّلَيْبِيَّةُ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ ، تَحْتَ
قِيَادَةِ (رِيْشَارْدَ) مَلِكِ الْإِنْجِلِيزِ ، الْمُلَقَّبِ قَلْبَ الْأَسَدِ ،

و (فِيلِيْبَ) مَلِكِ فَرَنْسَا وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْقَوَادِ وَالْمُلُوكِ .
وَأَرْسَلُوا إِلَى صَلاَحِ الدِّينِ ، فَذَهَبَ إِلَيْهِمْ ، وَمَعَهُ جَمَاعَةٌ
مِنْ جُنُودِهِ الْأَقْوِيَاءِ ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِمْ فَحَيَّاهُمْ (١) ، وَسَأَلَهُمْ
عَمَّا يُرِيدُونَ .

فَقَالُوا لَهُ : إِنَّا جِئْنَاكَ بِجُيُوشٍ لَا قُدْرَةَ لَكَ عَلَيْهَا ،
فَمِنْ الْخَيْرِ لَكَ أَنْ تُخْلِيَ (٢) بَيْتَ الْمَقْدِسِ فِي الْحَالِ . وَإِذَا
لَمْ تُخْلِهَا فَلَا تَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَكَ .

فَقَالَ صَلاَحُ الدِّينِ : « إِنَّكُمْ تَعْتَزُّونَ بِكَثْرَتِكُمْ ،
وَلَكِنَّا نَعْتَزُّ بِقُوَّةِ إِيْمَانِنَا ، وَصِدْقِ عَزَائِمِنَا . وَإِنَّكُمْ قَوْمٌ
تُحِبُّونَ الدُّنْيَا ، أَمَّا نَحْنُ فَقَوْمٌ نُحِبُّ الْآخِرَةَ ، وَنَعْمَلُ
لَهَا . وَلَنْ يَنْتَصِرَ مَنْ أَحَبَّ الْحَيَاةَ .

وَلَنْ يَنْهَزِمَ مَنْ أَرَادَ الْمَوْتَ .

فَقَامَ (رِيْثَارْدُ) وَقَالَ : يَا صَلاَحُ الدِّينِ ، إِنِّي
(رِيْثَارْدُ قَلْبُ الْأَسَدِ !) نَحْنُ نَعْتَزُّ بِقُوَّتِنَا . ثُمَّ أَتَى

(٢) تَرَكَ .

(١) قَالَ لَهُمْ : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ .

بِقَضِيْبٍ مِّنَ الْحَدِيدِ ، ثُمَّ رَفَعَ سَيْفَهُ ، وَضَرَبَ بِهِ الْقَضِيْبَ ، فَقَطَعَهُ قِطْعَتَيْنِ ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَكَانِهِ رَافِعًا رَأْسَهُ ، فَخُورًا بِقُوَّتِهِ . فَصَفَّقَ لَهُ الْأَوْرَبِيُّونَ تَصْفِيقًا طَوِيلًا .

وَلَكِنَّ صَلَاحَ الدِّينِ نَظَرَ إِلَى (رِيْثَارْدَ) فِي احْتِقَارٍ ، ثُمَّ قَالَ : « لَيْسَتْ أُمُورُ الْحَرْبِ رَاجِعَةٌ إِلَى صَلَابَةِ السُّيُوفِ ، وَقُوَّةِ الضَّرْبِ ، وَإِنَّمَا مَرْجِعُهَا إِلَى قُوَّةِ الْقُلُوبِ ، وَقَطْعِ السُّيُوفِ ، وَالْمَهَارَةِ فِي الْحُرُوبِ » .
ثُمَّ أَخْرَجَ مِنْدِيلًا رَقِيقًا ، وَرَمَاهُ إِلَى أَعْلَى ، ثُمَّ أَخْرَجَ سَيْفَهُ ، وَتَلَقَّفَ بِهِ الْمِنْدِيلَ ، فَقَطَعَهُ قِطْعَتَيْنِ مُتَسَاوِيَتَيْنِ ، فَعَجِبَ الْحَاضِرُونَ ، وَسَكَنُوا جَمِيعًا .

وَمَدَّ صَلَاحُ الدِّينِ سَيْفَهُ ، وَرَفَعَ بِطَرَفِهِ قِطْعَتِي الْمِنْدِيلِ مِنَ الْأَرْضِ ، وَرَمَاهُمَا فِي حِجْرِ (رِيْثَارْدَ) ثُمَّ قَالَ : « بِمِثْلِ هَذِهِ السُّيُوفِ سَنَلْقَاكُمْ غَدًا .. ثُمَّ خَرَجَ مِنْ مَجْلِسِهِمْ .

قَامَ (رِيْثَارْدُ) مِنْ مَكَانِهِ ، وَحَاوَلَ تَقْلِيدَ

صَلاَحُ الدِّينِ فِيمَا فَعَلَ بِالْمِنْدِيلِ ، فَلَمْ يَنْجَحْ . وَزَادَ
إِعْجَابُ الْمُلُوكِ بِصَلاَحِ الدِّينِ .

مُحَاصَرَةُ عَكَّا :

اِخْتَلَفَ الصَّلِيبِيُّونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ بَعْدَ أَنْ دَخَلُوا أَرْضَ
الشَّامِ ، وَجَعَلَ كُلُّ مَلِكٍ يَكِيدُ لِلْآخَرِ . وَاشْتَدَّتِ الْعَدَاوَةُ
بَيْنَ مَلِكِ الْإِنْجِلِيزِ وَمَلِكِ فَرَنْسَا . وَحَاصَرَتِ الْجُيُوشُ
الصَّلِيبِيَّةُ عَكَّا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَانْتَشَرَتِ الْأَمْرَاضُ بَيْنَ
الْجُنُودِ ، وَاشْتَدَّتْ حَرَارَةُ الصَّيْفِ ، فَرَجَعَ الصَّلِيبِيُّونَ إِلَى
بِلَادِهِمْ . وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا (رِيْشَارْدُ) الَّذِي اسْتَمَرَّ مُحَاصِرًا
عَكَّا بِجَيْشِهِ .

وَدَافَعَ الْأَهْلُونَ عَنِ الْمَدِينَةِ دِفَاعًا مَجِيدًا . وَلَمْ يَسْتَطِعْ
(رِيْشَارْدُ) دُخُولَهَا إِلَّا بَعْدَ أَنْ قُتِلَ آخِرُ جُنْدِيٍّ مِنْ
الْمُسْلِمِينَ الْمُدَافِعِينَ عَنْ حُصُونِهَا .

صَلاَحُ الدِّينِ يُحَصِّنُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ :

اسْتَمَرَّ صَلاَحُ الدِّينِ فِي إِعْدَادِ الْجَيْشِ ، وَتَخْصِيصِ بَيْتِ
الْمَقْدِسِ لِمُلاقَاةِ الصَّلِيبِيِّينَ فِي مَوْقِعَةٍ فَاصِلَةٍ .

التقى جيش (ريشارد) مع جيش صلاح الدين
وجها لوجه عند بلدة (حطين) . وكان (ريشارد)
يخرج ليلاً ؛ ليطمئن على راحة قواده وجنوده . وكان
معه فتاة عملت على توفير أسباب الراحة له .

وكانت تمشي وراءه في أي جهة يمشي فيها ؛ لأنها
سمعت أن هناك مؤامرة تدبر في السر لقتله . ولما أخبرته
لم يهتم بقولها .

وفي ليلة من الليالي بحثت الفتاة عن (ريشارد) في
خيمته فلم تجده ، فخرجت تفتش عنه ، فتاهت في
الطريق ، ووصلت إلى معسكر المسلمين ، فظنوها أحد
الحراس جدياً يتجسس أخبارهم ، فرماها بسهم
أصابها ، ف وقعت على الأرض ملطخة بدمائها .

وصادف أن مر صلاح الدين كعادته كل ليلة بتلك
الجهة ، فسمع صوتاً مخزناً ، فبحث فوجد هذه الفتاة
تتألم من جرحها . فحملها على يديه ، ومشى بها حتى
وصل إلى أقرب خيمة في المعسكر ، وطلب الطبيب ،

وَأَوْصَاهُ بِهَا خَيْرًا . فَأَخْرَجَ الطَّبِيبُ السَّهْمَ مِنْ فَخْدِهَا ،
وَعَالَجَهَا حَتَّى شُفِيَتْ مِنْ مَرَضِهَا . وَبَقِيَتْ فِي
الْمَعْسُكِرِ .

التقى الجيشان ، وَاقْتَتَلَا قِتَالًا طَوِيلًا ، وَأَعْجَبَ
صَلَاحُ الدِّينِ بِمَهَارَةِ (رِيْشَارْدَ) الْحَرْبِيَّةِ ، مَعَ مَا كَانَ
بَيْنَهُمَا مِنَ الْعَدَاوَةِ .

أَسَرَ الْمُسْلِمُونَ بَعْضَ الصَّلِيبِيِّينَ ، فَلَمَّا عَرَضُوهُمْ عَلَى
صَلَاحِ الدِّينِ فِي خِيَمَتِهِ عَرَفَتِ الْفَتَاةُ فِي الْأَسْرِ قَائِدًا كَانَ
يُلَازِمُ (رِيْشَارْدَ) ، فَطَلَبَتْ إِلَى صَلَاحِ الدِّينِ أَنْ يَسْمَحَ
لَهَا بِالتَّكَلُّمِ مَعَ ذَلِكَ الْقَائِدِ الْأَسِيرِ . فَلَمَّا سَمَحَ لَهَا سَأَلَتْهُ
عَنْ سَيِّدِهِ ، فَأَخْبَرَهَا بِأَنَّ هُنَاكَ مُوَأَمَّرَةً مِنْ أَعْدَائِهِ
الْفَرَنْسِيِّينَ وَبَعْضِ الْإِنْجِلِيزِ لِقَتْلِهِ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ .
وَلَمْ أَتِمَّكَنْ مِنْ إِنْخَبَارِهِ ؛ لِأَنِّي وَقَعْتُ أَسِيرًا .

تَأَلَّمَتِ الْفَتَاةُ ، وَأَخَذَتْ تُبْكِي . فَسَمِعَهَا صَلَاحُ
الدِّينِ ، فَسَأَلَهَا عَنْ سَبَبِ بُكَائِهَا ، فَأَخْبَرَتْهُ بِكُلِّ شَيْءٍ .
وَكَانَ مِنْ عَادَةِ (رِيْشَارْدَ) أَنْ يَخْرُجَ كُلَّ لَيْلَةٍ بَعْدَ

انْتِهَاءِ الْقِتَالِ ؛ لِيرَى بِنَفْسِهِ الْقَتْلَى وَالْجَرْحَى مِنْ جُنُودِهِ ،
وَمَعَهُ بَعْضُ قُوَّادِهِ .

وَفِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ الَّتِي دَبَّرَ فِيهَا أَعْدَاؤُهُ الْمُؤَامَرَةَ خَرَجَ
وَحْدَهُ . فَرَأَى فِي الْمَيْدَانِ قَائِدًا مَرْمِيًّا عَلَى وَجْهِهِ ،
فَجَلَسَ ، وَأَخَذَ يُقَلِّبُهُ ، فَعَرَفَ أَنَّهُ قَائِدُ فَرَنْسِيٍّ كَانَ يُقَرِّبُهُ
مِنْ مَجْلِسِهِ ، وَظَنَّهُ مَيِّتًا ، فَتَأَثَّرَ ، وَوَقَّفَ حَزِينًا ، ثُمَّ
مَشَى .

وَفِي الْحَالِ قَامَ ذَلِكَ الْقَائِدُ الْفَرَنْسِيُّ ، وَنَفَخَ فِي بُوقٍ
صَغِيرٍ كَانَ مَعَهُ . فَدَهَبَ (رِيْشَارْدُ) حِينَمَا رَأَى كَثِيرِينَ
يَذْهَبُونَ جِهَتَهُ فِي الظُّلَامِ ، فَتَرَجَعَ إِلَى الْوَرَاءِ ، وَلَكِنَّهُ
تَذَكَّرَ سَيْفَهُ ، فَأَخْرَجَهُ ، ثُمَّ صَاحَ فِي وَجْهِ الْخَائِنِينَ : مَنْ
أَنْتُمْ ؟ فَأَجَابَهُ الْقَائِدُ الْفَرَنْسِيُّ : نَحْنُ سَنَقْطَعُ الْيَوْمَ
رَقَبَتَكَ .

فَقَالَ (رِيْشَارْدُ) : لَنْ يَكُونَ لَكُمْ ذَلِكَ . إِنِّي
(رِيْشَارْدُ قَلْبُ الْأَسَدِ) . هَلْ فِيكُمْ أَنْجِلِيزِيٌّ ؟
فَأَجَابَهُ الْفَرَنْسِيُّ : نَعَمْ . فَهَجَمَ عَلَيْهِمْ (رِيْشَارْدُ) ،

وَلَكِنَّهُمْ تَكَاثَرُوا عَلَيْهِ ، وَأَخَذَتْ قُوَّتُهُ تَضَعُفُ ، فَأَعْتَقَدَ أَنَّهُ سَيُقْتَلُ .

وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ وَصَلَ جُنُودُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ النُّبَلَاءِ الْأَبْطَالِ ، فَأَتَّبَعُوا هَؤُلَاءِ الْخَوَنَةَ عَنْ (رِيْثْشَارْدَ) ، وَضَرَبُوهُمْ بِسُيُوفِهِمْ ، وَقَتَلُوهُمْ جَمِيعًا . ثُمَّ طَلَبُوا إِلَى (رِيْثْشَارْدَ) أَنْ يَذْهَبَ مَعَهُمْ إِلَى مُعَسْكَرِ سَيِّدِهِمْ صَلَاحِ الدِّينِ ، الَّذِي أَرْسَلَهُمْ لِإِنْقَاذِهِ مِنْ أَيْدِي أَعْدَائِهِ .

ذَهَابُ (رِيْثْشَارْدَ) إِلَى صَلَاحِ الدِّينِ :

ذَهَبَ (رِيْثْشَارْدُ) إِلَى صَلَاحِ الدِّينِ ، لِأَنَّهُ كَانَ يَعْرِفُ فِي صَلَاحِ الدِّينِ النُّبْلَ وَالشَّرَفَ وَالْبَطُولَةَ . وَلِأَنَّهُ اعْتَقَدَ أَنَّ الْقَائِدَ الَّذِي يُخَلِّصُ عَدُوَّهُ مِنَ الْمَوْتِ — لَنْ يُفَكَّرَ فِي أَنْ يَأْخُذَهُ أُسِيرًا ، بَعْدَ إِنْقَاذِهِ مِنْ أَعْدَائِهِ .

قَابَلَ صَلَاحُ الدِّينِ (رِيْثْشَارْدَ) مُقَابَلَةَ الصَّدِيقِ لِصَدِيقِهِ ، وَأَكْرَمَهُ كُلَّ الْإِكْرَامِ . وَبَعْدَ قَلِيلٍ حَضَرَتِ الْفَتَاةُ الَّتِي كَانَتْ تُلَازِمُ (رِيْثْشَارْدَ) ، وَأَخْبَرَهُ صَلَاحُ الدِّينِ بِأَنَّهَا كَانَتْ السَّبَبَ فِي تَخْلِيصِهِ مِنَ الْمَوْتِ فِي هَذِهِ

الليّلة .

وَشَكَرَ (رِيْتشارْد) لِصَلاَحِ الدِّينِ مَا قَامَ بِهِ مِنْ إِنْقاذِ
حَيَاتِهِ .

فَقَالَ لَهُ صَلاَحُ الدِّينِ : لَا شُكْرَ عَلَى فِعْلِ الْوَاجِبِ .
وَقَدْ انْتَهَتْ الْحَرْبُ بِانْتِصَارِ صَلاَحِ الدِّينِ انْتِصَارًا تَامًا .
وَعُقِدَتْ بَيْنَهُمَا مُعَاهَدَةٌ كَانَ مِنْ شُرُوطِهَا وَقْفُ الْقِتَالِ
بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالصَّلِيبِيِّينَ لِمُدَّةِ ثَلَاثِ سَنَوَاتٍ وَثَلَاثَةِ
أَشْهُرٍ .

رَجَعَ (رِيْتشارْد) إِلَى بِلَادِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَدْخُلَ بَيْتَ
الْمَقْدِسِ ، وَأَرْسَلَ إِلَى صَلاَحِ الدِّينِ رِسَالَةً يَذْكُرُ لَهُ فِيهَا أَنَّهُ
سَيَرْجِعُ لِلْحَرْبِ بَعْدَ انْتِهَاءِ الْهُدْنَةِ ، لِيُخْلَصَ بَيْتُ
الْمَقْدِسِ مِنْ أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ .

فَأَرْسَلَ لَهُ صَلاَحُ الدِّينِ خِطَابًا كُلُّهُ رِقَّةٌ وَذَوْقٌ ، بَيْنَ لَهُ
فِيهِ أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَفْرُؤٌ مِنْ هَزِيمَتِهِ ، فَإِنَّهُ يُفَضِّلُ أَنْ
يَنْهَزِمَ لِرِيْتشارْدَ لَا لِمَلِكٍ آخَرَ غَيْرِهِ .

وَبَعْدَ أَنْ انْتَصَرَ صَلاَحُ الدِّينِ ، وَخُلِّصَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ

مِنَ الصَّلَيبِيِّينَ ، رَجَعَ إِلَى الْقَاهِرَةِ .

صَلَاحُ الدِّينِ بِالْقَاهِرَةِ :

رَجَعَ إِلَى الْقَاهِرَةِ ، وَنَظَّمَ حُكُومَتَهُ ، وَبَنَى الْحُصُونِ
وَالْمَسَاجِدَ ، وَبَنَى قَلْعَةً عَظِيمَةً فَوْقَ جَبَلِ الْمُقَطَّمِ . وَبَنَى
حَوْلَ الْقَاهِرَةِ سُورًا عَظِيمًا مِنَ الْحَجَرِ يَحْمِيهَا مِنْ شَرِّ
الْأَعْدَاءِ .

وَأَخَذَ يَنْشُرُ التَّعْلِيمَ بَيْنَ الْمِصْرِيِّينَ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ أَنْشَأَ
فِي مِصْرَ الْمَدَارِسَ الشَّعْبِيَّةَ الَّتِي يَتَعَلَّمُ فِيهَا أَبْنَاءُ الْفُقَرَاءِ
وَالْأَغْنِيَاءِ مَعًا . فَأَحَبَّهُ الشَّعْبُ لِعَدْلِهِ وَنُبْلِهِ ، وَحِلْمِهِ ،
وَشَجَاعَتِهِ وَكَرَمِهِ . وَمَدَحَهُ الشُّعْرَاءُ بِقَصَائِدِهِمْ .

وَقَدْ اتَّسَعَتْ مَمْلَكَةُ صَلَاحِ الدِّينِ ، فَكَانَ مِنْهَا مِصْرُ ،
وَالْحَرَمَانُ الشَّرِيفَانِ ، وَجُزْءٌ كَبِيرٌ مِنْ بِلَادِ الشَّامِ .
وَكَفَاهُ شَرَفًا أَنْ يُوَحَّدَ بَيْنَ الْعَرَبِ ، وَأَنْ يُحْيِيَ الْقَوْمِيَّةَ
الْعَرَبِيَّةَ .

وَلَمْ يَعِشْ طَوِيلًا بَعْدَ أَنْ انْتَصَرَ عَلَى الْإِفْرَنْجِ فِي
سُورِيَّةَ .

مَوْتُهُ :

أَصَابَهُ بَرْدٌ شَدِيدٌ . وَلَمَّا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْمَرَضُ ، وَأَحَسَّ
أَنَّهُ سَيَمُوتُ ، تَنَازَلَ عَنْ كُلِّ مَا كَانَ يَمْلِكُهُ لِلْأَعْمَالِ
الْخَيْرِيَّةِ ، وَبَنَاءِ الْمَسَاجِدِ وَالْمَدَارِسِ .
وَفِي يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ ٢٧ مِنْ صَفَرِ سَنَةِ ٥٨٩ هـ وَ ٤ مِنْ
مَارِسِ سَنَةِ ١١٩٣ م . مَاتَ صَلَاحُ الدِّينِ وَعُمُرُهُ ٥٧
سَنَةً . وَلَمَّا مَاتَ لَمْ يَجِدُوا فِي خِزَانَتِهِ الْكَبِيرَةِ إِلَّا دِينَارًا
وَنِصْفَ دِينَارٍ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يُنْفِقُ كُلَّ أَمْوَالِهِ فِي مُسَاعَدَةِ
الْفُقَرَاءِ وَالْمُحْتَاجِينَ .